

فصلية اللسان الممين (بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكمة)

السنة السادسة، المسلسل الجديد، العدد الثامن عشر، شتاء ١٣٩٣، ص ١٤-١

أبوبكر محمد بن داود الإصفهاني، شاعر الحبّ العفيف*

فائزه پسندي

طالبة الدكتوراه بجامعة كاشان

نصرالله شاملي

أستاذ بجامعة اصفهان

علي بنائيان الإصفهاني

طالب الدكتوراه بجامعة قم

الملخص

أبوبكر محمد بن داود الإصفهاني، المعروف بالظاهري (٢٥٥-٢٩٧ هـ.ق/٨٦٩-٩١٠م)، عاش في العصر العباسي الثاني. هو من أكابر علماء عصره و فقهاءهم و أدكيائهم لعلوه في رتبة الأدب، و تصرفه في اللغة و تفنّنه في موارد المذاهب و قدرته على القضاء و الإفتاء. كان يكثر في عصره، الغزل العفيف العذري جنباً الى الغزل الإباحي المكشوف. و قد ظلّ الغزل العفيف حيّاً مع وجود بعض الشعراء من مثل محمد بن داود الإصفهاني.

يعمد هذا البحث إلى دراسة أهم اشعاره لأنّه يمثل انعطافاً واضحاً في تيار الشعر العربي و غرضاً شعرياً متميزاً و أسلوبياً خاصاً كما كان حافظاً لأساليب الشعر المورثة، و تأثّر بالحضارة العربية آنذاك؛ قد قام المؤلفون في هذه المقالة بدراسة آراءه و أسلوبه الشعري الخاص المتميز.

الكلمات الدليلية: أبوبكر الإصفهاني، العصر العباسي الثاني، الحبّ، الغزل العفيف.

* تاريخ الوصول: ١٣٩١/٠٤/١٢ تاريخ القبول: ١٣٩١/١١/٢١

عنوان بريدالكاتب الإلكتروني: faezehpasandi@yahoo.com

١- المقدمة

قد نشأت ظاهرة الحبّ العذري و العفيف قبل الإسلام منذ العصر الجاهلي و ينسب إلى بني عُذرة، لكن الشعراء الإسلاميين تقلدوا هذا الاستهلال و البراعة في أشعارهم. و قد ازدهر هذا الفن في العصر الأموي. و لذلك نرى جميل بثينة و جميل دراج و غيرها. فإتخما و زملاءهما قد أنشدوا نصوصاً شعرية حول الحب و قضاياه. لكن هذا الازدهار نما و ترعرع في عصر شاع فيه الحبّ الإباضي. و المصداق الأتمّ في هذا الصدد شعر عمر بن أبي ربيعة حول الحب الإباضي.

من المزهريات الشعرية في العصر العباسي من تاريخ الأدب العربي، ازدهار أنواع الحب. لذلك شاع الغزل في شتى مستوياته، فشاع الحب العذري و العفيف و الإباضي بكل درجاته.

أما الشاعر العباسي الثاني (كما نرى عند أبوبكر محمد بن داود الإصفهاني) لما رأى تطور الحبّ بأخفاء مظاهره ثم رأى كيف ازداد الحب الإباضي بكل بساطه و شهد نشوء عقباته الكثيرة أجاب هذا الحب بالحب العفيف. و هو الأخذ بالعفة و الرضا بالعلاقة الطاهرة. و هذا معنى التزكية و رفع الأرجاس من الناس. و قد أصبح الحب العفيف أمراً مفيداً، تعرّض الشاعر أول كل قصيدة يبيّن فيها مثلاً في الموضوعات الدينية و الأخلاقية و الإحسانية و الوصفية و غيرها. فتجلّى خيال الشاعر في تلك القصيدة بأحسن وجه. و يتميّز هذا الغزل بعفة اللسان و صدق الصبابة و طهارة المعنى و رقة العاطفة و عنفوان الشوق مع نغمة حزينة و شيوع ألفاظ و معان حضارية مستجدة و الميل نحو أسلوب سهل سلس.

١-١- أهداف البحث

١. إضاءة ظاهرة الحب العفيف في شعر أبي بكر الإصفهاني كنموذج بارز لتيّار شعري متميز في العصر العباسي.

٢. بيان الخصائص الفنية و الجمالية لغزله العفيف.

١-٢- منهج البحث

المنهج المتّبع في هذه الدّراسة هو المنهج الوصفي التحليلي و الفني النفسي.

١-٣- خلفية البحث

لم يعثر على أي بحث حول خصائص شعر أبي بكر الإصفهاني و لكن هناك بحوث حول خصائص الغزل في العصر العباسي، مثل «الغزل في العصر العباسي» للباحث فضل الله عبدالرؤوف (١٣٢٧ق) و «شعر الغزل العذري في العصر العباسي شعراؤه واتجاهاته الموضوعية والفنية»، للباحثة لينا عبد ربه حورشيد الشخصشير (١٩٩٨م).

١-٤- أسئلة البحث

١. ما هي المضامين الأصلية في شعر أبي بكر الإصفهاني و هل انعكست فيه خصائص الأدب العباسي؟

٢- لمحة من حياة أبي بكر الإصفهاني

أبو بكر محمد بن داود الإصفهاني (٢٩٧-٢٥٥ هـ. ق. / ٩١٠-٨٦٩ م)، المعروف بالظاهري، الفقيه الأديب، صاحب كتاب «الزهره»، ولد ببغداد و كان يناظر الأدباء و الشعراء و له عشر سنوات. خلف أباه على رئاسة المذهب الظاهري، و كان من المقبولين بالحجاز، و مصر، و الشام و العراقيين، و بلاد خراسان. (الخطيب البغدادي، بلاتاريخ، ج٥: ٢٥٦)

و له مصنفات مختلفة في المذهب الظاهري. لكنّه عرف بكتاب «الزهره» أكثر من أيّ كتاب آخر، لشهرة هذا الكتاب، و ما جمع فيه من آداب، و أتى فيه من نوادر، و ذكر فيه من أشعار لاسيّما الغزل العفيف كما أشار إليه ابن خلكان، حاجي خليفة و ابن الجوزي و قد نعته ابن الرومي بـ«فقيه العراق». (ابن خلكان، ١٩٤٨م، ج٣: ٣٩٠) (حاجي خليفة، ١٩٤٦م، ج٢: ٢٠١٤-١٢٩٤) و كذا (الصفدي، ١٩٤٩م، ج٣: ٥٨) (ابن الجوزي، ١٣٥٨ق، ٦: ٩٤)

٢-١- خصائص الأدب العباسي في شعره

في هذا العصر كان الغزل العفيف يعبر عن شوق مضطرم في النفس إلى المحبوب و عن لوعة لفراق الحبيب بكل ما فيه من جمال و جلال فهو لا يصدر إلا عن نفس طاهرة عفيفة تحنّ إلى السمو الروحي و الطهر النفسي و الجمال المطلق و تنشّد ألحان الشوق و اللوعة معبرة عن الحنين. و الغزل العفيف ينطلق من نفس عفيفة تنشّد السمو الروحي. (آذرشب، ١٣٨٢ش: ٥٩) كان للإيرانيين دور كبير في النهضة الأدبية التي شهدتها هذا العصر. (المصدر نفسه: ٣٨) نلاحظ في شعر هذا العصر رقة العبارة و المعاني اللطيفة و الصنعة اللفظية البديعية، و استعمال الألفاظ الأجنبية خاصّة الفارسية. (المصدر نفسه: ٤٧)

كان الحبّ من أهمّ مضامين الأدب العباسي الثاني و لاسيّما الحب العفيف الذي هو من المضامين الأصلية لأشعار ابن داود الإصفهاني. و قد انعكست حرارة الشوق في شعره، فبرزت بشكل واضح، و تجلّت من ثنايا بعض الأبيات، و كأنه كان يجد في كشف المعاناة ما يخفف عنه أعباء ما ينوء به من لوعة الحبّ، و ما يسطه من ذلة بين يدي محبوبه.

و يعكس الوصف في العصر العباسي الثاني ما ساد فيه من نضج عقلي و تطور حضاري و تأثر بالتّقافة الفارسية و لا يخلو ديوان شاعر من وصف. كان الشعراء في هذا العصر يصفون الطبيعة و ما فيها في مقدمات أشعارهم تارة بإيجاز و تارة بإطناب. و قد كانوا يكتفون من وصف الربيع في ثمناتهم و كذا في أعياد النيروز أو المهرجان و ذكر الأنوار و التّياحين بمفردات فارسية. (آذرشب، ١٣٨٢ش: ٥٧) و كذا (ضيف، ١٤٢٧ق: ٢٢٨) كما يقول أبو بكر في ذكر لطف الأصحاب و تمادي أهل الآداب:

يا مُهدياً ياسميناً حول سوسنةٍ في باقٍ من خلاف حشوها الأس

في الياسمين بلاغٌ لو قنعتُ به إذ كان أول شيء في اسمه الياس

(المصدر نفسه: ١٧٩)

يقول الشاعر: يا من يُهدي باقَّةَ زهورٍ فيها ياسمينٌ و سوسنةٌ و آسٌ. لو نظرتَ إلى الياسمينِ، لوجدتَ فيه رسالةً و معنىً، لأنَّ اسمه يبتدئُ بالياس. و لعلَّ الشاعر أراد بهذه الرسالة أن يجعل صاحبه في ياس من الاستمرار في الحبِّ و المودة.

و يصف الشاعرُ الأعياد و المهرجانات خاصة عيد النيروز الإيراني، مشيراً إلى الهدايا التي تقدّم في المناسبات الخاصة، و هنا ينوّه الشاعر بأنَّ المطلوب من العظماء العفو و المغفرة للمسيئين؛ و يحضّ الملوك عليها:

و نيروزنا هذا جديداً نلاقه بعفوٍ جديد عن ذنوبِ شكور

(الإصفهاني، بلاتاريخ: ٧١)

هذا النيروز، يوم جديد، نلاقه و نحن مبرؤون من الذنوب شاكرين لأنعم الله.

٢-٢-٢-أهم أغراضه الشعرية

إنَّ أشعاره تناولت أغراضاً مختلفة أهمها المدح و الوصف و العتاب و الهجاء.

٢-٢-٢-١-المدح

يعتبر من أهم الأغراض الشعرية في العصر العباسي و الجزء الأكبر من شعر هذا العصر، إذ يحتلّ المدح مساحة كبيرة من دواوين الشعراء للتكسب و الطمع في المال و لا يرتبط بالجمتمع و آلامه و آماله (آذرشب، ١٣٨٢ش: ٥٠) و قد استخدمه الشاعر لكي يمدح محبوبه و إخوته أو بعض الخلفاء لأهداف منها إظهار الإخلاص و طلب العفو.

و لو أدنو لأقللت العتاب و لم أزد على أن تراني في امتداحك مُطنيا

(الإصفهاني، بلاتاريخ: ٣٦)

و لو دنوت منك و حصل الثرب لقل العتاب، و لا تراني إلا مادحاً لك مُكثرأ في مدحك.

٢-٢-٢-الوصف

يرسم الشاعر لنا صورة فنية و يعبر عن مشاعره الذاتية بدقة و خاصة ما يتعلّق بمنهج الوصف و التحليل خاصة للطبيعة أو في بيان الأحداث المؤلمة التي حصلت له.

و كمّ فلاذٍ يفوتُ الطَّرفُ آخرُها للحنِّ باللَّيلِ في أقطارِها وهجٌ

(المصدر نفسه: ٤١)

خُلِقَ الجُرُّ مِنَ النارِ، و وهج النارِ: كناية عن توقّده و اضطرابه. يصف الشاعرُ مظاهرَ هذا المكان: و كمّ من هضبةٍ أو مفارقةٍ تعيي العينَ و يعجز البصرُ من رؤيةٍ نهايتها و الجُرُّ يضطربُ و يهيج في لياليها المظلمة لأنّه يحبُّ سوادَ اللَّيلِ ليكتمانه عن الآخرين.

٣- مكانة الحبّ العفيف في شعره

قد غاب الوصف الحسي عن غزل الإصفهاني و لم يتحدث الشاعر عن مفاتن محبوبه الحديث المادي الوصفي. الحب العفيف من أهم النقاط الأخلاقية في ديوان أبي بكر و نجد مضمون حديث رسول الله(ص) في شعره. قال النبي الأكرم(ص): «من عشق و كنم و عفت و صبر، غفر الله له و أدخله الجنة» (انظر: البسطامي، ١٣٨٤ق، ج ٢: ٨٧) ينشد الإصفهاني:

في عَفَّةٍ تتحامى أن يلمّ بها سُوءُ الظنونِ و أن تغتالها الرِّيبُ

(المصدر نفسه: ١٧)

يقول الشاعر: حُبُّنا في عَفَّةٍ، نبدلُ كلَّ ما في وُسعنا أن يبقى دائماً، و ألاّ يخرِّقَه سوءُ ظنِّ الآخرين، و ألاّ تقضي عليه الشكوكُ و الظنونُ من قبل الآخرين. و ينشد أيضاً:

و فتیانِ صدقٍ قد سئمتُ لقاءهم و عفتُ طريبي عنهم و لسانِي

(الإصفهاني، بلا تاريخ: ١٧)

يقول الشاعر: ربّ شبابٍ ذوي صدقٍ تعبْتُ من لقاءهم و زيارتهم و غضضْتُ عيني عنهم و لم أتكلّم معهم [أعرضت عنهم].

أهم ميزات الحبّ العفيف في غزله

٣-١- التوحيد في الحب: يقتصر الحب على محبوب واحد يوجّه إليه خطابه و لكثرة الإخلاص يفدي نفسه له ثم يحتقرها و يرحح المحبوب على نفسه و هذا نهاية الفناء في الحبّ لأن النفس أعزّ شيء عند كل إنسان و هذا يدلّ على مدى حبّه:

كأنّ رقيباً منك يرعى خواطري و آخرَ يرعى ناظري و لسانِي
فما عينتُ عينا ي بعدك منظرًا يسوؤك إلاّ قلتُ قد رَمَقاني
و لا بدرتُ من فيّ بعدك فرحةً لغيرك إلاّ قلتُ قد سمعاني
إذا ما تسلّى الغابرون عن الهوى بشرب مدامٍ أو سماع قيان
وحدث الذي يسلي سواي يشوقني إلى قريكم حتّى أملّ مكاني

(المصدر نفسه: ٦٦)

يريد الشاعرُ في هذه الأبيات أن يصف أحواله في الهوى و يثبت لمحبوبه صفاء قلبه فيعبّر عمّا في صدره من مشاعرَ مرهفة، كأنّ مراقباً من محبوبه يُراقبُه في جميع الأحوال بحيث يتخوّفُ أن ينظرَ إلى غيره. ثمّ يُعلن أنّه يكرهُ سائرَ الفتيان و يعضّ البصرَ عنهم، و إن كانوا صادقين في حبّهم. و يقول: كأنّك جعلتَ مراقباً يُراقبُ ما يحظر بيالي و قلبي و مراقباً آخر يراقب عينيّ و لساني. إنّ عينيّ لا تنظران بعدك إلى أيّ منظرٍ أو شخص أنت تكرهه. و لا ظهرت فرحة على شفتيّ من بعدك لغيرك إلّا قلت في نفسي لعلّ هناك من يراقبني في عمالي (و يقصد الخواطر و الناظرين). وجدت الذي يسليّ العاشقين بشرب الخمر أو سماع الغانيات، بينما يشوّقني إلى قربكم حتّى ضاق عليّ مكاني فرحلت.

كانتْ لقلبي أهواءٌ مفرّقةٌ فاستجمعتْ مذ رأيتك العيّن أهوائي

(الإصفهاني، ١٩٣٢م: ٧٤)

فيشير إلى أهواء مختلفة بقوله: كنت أحمل أهواءً متباينة قبل أن أراك، عندها استجمعت تلك الأهواء فلا تتعداك.

فَقِيمَ أرى نفسي لقيّ بفنائكم و لا من يُدانيني لديكم مُؤانس

(الإصفهاني، بلاتاريخ: ٥٣)

و كيف و متى أرى نفسي قد حلّت بساحتكم و لا يكون لي بديلاً غيركم من مُؤانس.

٣-٢- تصوير آلام البعد و الفراق:

يتحدّث الشاعر عن المكابدة و المعاناة الدائمة و الرضا بذلك:

تمتّع من حبيبيك بالوداع إلى وقت السرور بالاجتماع
و كم كأسٍ أمرٌ من المنايا شربت فلم يَضِقْ عنها ذراعي
و لم أر في الذي لاقيتُ شيئاً أمرٌ من الفراق بلا وداع
تعالى الله كلُّ مواصلات و إن طالتْ توؤلُ إلى انقطاع

(المصدر نفسه: ١٦٠-١٨٠)

يقول الشاعر إنّها ليست آخر لحظة يلقي فيها الحبيب، فستأتي بعدها لحظات لقاء، و هكذا الحب أحوال من وصل و فراق و لقاء و هجر. ثمّ يشكو: كم شرب من الحب كؤوساً مرّةً مرّةً من الموت، فتحملها صابراً. و ليس أمرٌ من الفراق بلا وداع و لا سلام و لا حتى تحيّة من بعيد، فإنّ هذا عذاب لا يطاق، عذاب كأنه الجحيم. و يتوب الفقيه إلى رشده، فالله قد كتب على كل شيء الزوال و الفناء.

فقد والَّذي لو شاءَ لم يَخْلُقِ التّوى عرضتُ فما أدري إلى أين أذهب

(الإصفهاني، ١٩٣٢م: ٧١)

أُقسِمُ باللهِ جلٍّ و علا، و لو شاءَ لما خَلَقَ البُعدَ و الفراقَ بين النَّاسِ، إنّي تعرّضتُ لهذا الحبِّ تعرّضاً فلا أدري ماذا أفعل الآن، و أيّ طريقٍ أسلك؟

شوقاً إليك و لولا ما أكابده

لكان لي في بلاد الله منفرج

(الإصفهاني، بلا تاريخ: ٤١)

كلُّ هذا العناء و تحمُّل المشاقِّ هو بسببِ شوقي إليك، و لولا هذا الشوقُ و شدَّتهُ لكان لي في أرضِ الله راحةٌ و اطمئنانٌ و سكينَةٌ و رعدٌ في الحياة.

٣-٣-التضجّر من الوشاة:

يتعرض إلى لوم اللاتمين و مراقبتهم و لا يزيده ذلك إلا تعلقاً بالمحبوب و يريد المحبوب أن لا يعتمد على أخبارهم ثم يتهكّم عليهم بقوله:

فصار يحسدني من كنتُ أحسده
حتى إذا استيأس الحسادُ من دركي
و صرْتُ مولى الوزى مُد صرتَ مولائي
و قلّ أعداي مُد قللتُ أكفائي
فصار طيبُ الكرى من بعضِ أعدائي
حيثُ طعم الكرى عيني فاهتجرا

(الإصفهاني، ١٩٣٢م: ٧٤)

الشاعرُ يُعبّر عن حبِّ و محبوبٍ لا نظيرَ لهما و أنّ حبيّ هذا المتميّز جعلَ عددَ نظرائي أقلَّ ممّا كان عليه في السابق عندئذٍ قلّ أعدائي أيضاً مع قلةِ النظراءِ. منعتُ عيني من طعمِ الثعاس، و منعتُ نفسي من الرّاحة و الرّخاء في حين أنّ بعضَ أعدائي استأنسوا بئومهم لما شاهذوه من غنائي. عندئذٍ صار يحسدني من كنتُ أحسده و منذ أن أصبحت مولى لي صرت مولى الناس. و عندما يئس الحساد من إدراك ما أعانيه من حب، فأصبح أعدائي أقلَّ عدداً عندما قلّ المنافسون.

و كان لأبي بكر محمد بن داود منهجٌ نقديّ، خاصةً في النصف الأول من كتاب «الزهرة». فالشاعر لا يترك الأشعار دون تعقيبٍ أو نقدٍ و يُعالج في كتابه مسألة «الحب» و يُيدي رأيه بالنسبة إليها. و يلوم الشعراء الذين يجعلون المحر بديلاً للوصل، كقوله:

و إتي لأرضى من بُئينة بالذي
بلسى وبأن لا أستطيع و بالمنى
لو أحره الواشي لقرت بلابله
و بالأمل المرجو قد خاب أمله
و بالظرة العجلى وبالحول تنقضي
أواخره لا تلتقي وأوائله

(المصدر نفسه: ٥٧-٩٧)

و في هذه الأبيات، يرحح الشاعر المرأة الحسنة على محبوبٍ لا وفاءً له بعهدده، لأنّ هذا المحبوب يستمع إلى أخبار الوشاة. يتوقّع شاعرنا العاشق أن لا يحكم المحبوب بعجالة بل عليه التريث و التعقل و كذا التحقيق ثم الإدلاء برأيٍ صحيح. و لا ينبغي أن يحكم الإنسان العاقل اعتماداً على أخبار الوشاة دون أيّ تحميص. فبالنظرة العابرة لا تظهر الحقيقة بكنهها.

فإنّ محّا الشوق فرطُ الأفس أوحشنا

أنسُ العواذل إنّ جدّوا و إنّ لعبوا

(الإصفهاني، بلا تاريخ: ٣٧)

فلو محّا الشوقَ ما فَرَطْنَا في مؤانستنا البعضَ مع الآخر، فإنَّ الاجتماعَ مع اللّائمين سيوحشنا، سواءً أكانوا
جاذِبين في ملامتِهم أو هازلين.

لئن رَقَدَ الواشي سُوراً بما رأى و هانَ عليه أنْ يَقِرَّ و أنصبا
لقد أسهر العينين مَنِّي صبابَةً و غادرَ قلبي مُستهاماً مُعدباً

(المصدر نفسه)

لئن استمررت بالفراق و دُمت على الانقطاع، فإنَّ هذا الأمرَ يفرحُ التمامَ و يثلجُ قلبَ الواشي و سيحصلُ
من جزاءِ ذلك الفرحُ و السُرورُ. و سهرتُ عيني إثرَ الفراق من شدَّة التعلُّق و الشوق بك، و جعل الحبيبَ عيني
ساهرةً و ترك قلبي مُستهاماً في حبِّه و مُعدباً.

٣-٤- الرحلة للوصال: يريد الشاعر السفر إلى المحبوب عاجلاً لكي لا تفوت لحظة.

رحلتُ لكي أحظي إذْ أُبْتُ قادمًا فأوردني الرَّحالُ سوءَ الموارد

(الإصفهاني، بلا تاريخ: ٤٥)

رحلتُ كي أتقي مع الحبيبِ و لكي أحظى باللقاءِ و لكنَّ هذا الرَّحالُ أدخلي في ما لا تحمُدُ عُباهُ و
أصبْتُ بالفشل.

فلم أنسَ إذْ قَيَّدتُ رحلَ مطيبي و قلتُ للحادي الدودُ لمْ لا تقوِّدُها
كأنَّك لم تعلمَ بأنْ رُبَّ لحظةٍ تفوتُك لا تدري متى تستفيدُها

(المصدر نفسه: ٤٣)

حينما أردتُ أنْ أشدَّ رحلَ مطيبي، قلتُ للحادي لمْ لا تقوِّدُها، في ذلك الوقت ما كان ناسياً لأقولُ له
كأنَّك لا تستفيد من الفرصة إذا واثتُك لأنَّك لا تُدرك بأنَّ الفرصة إذا واثتُك و لم تستفد منها فربَّما لا تسنخُ
لك ثانيةً بعد ذلك.

قطعتها باهن حريفٍ ضامرٍ قَطِمٍ صلبِ المناسم في إرقاله هوجٍ

(الإصفهاني، ١٩٣٢م: ٣)

يشير الشاعرُ إلى أنه لا يعبأ بالمتاعبِ و المصاعبِ في سبيل الوصولِ إلى المحبوبِ فيقولُ إنه قد قطعَ هذه
الفيافي بجملِ ضامرٍ قويٍّ سريعِ الحركة.

على أنْ عبدَ الشوقِ ليستْ هُوهُ حزونُ الفيافي و الليالي الدواميس

(المصدر نفسه، ١٢٨)

و لكنَّ الشَّخصَ المستهَامَ قلبُه لا تَمَنُّعُه تلكَ الأهوالُ و مخاوفُ الطريقِ و كذلك لا يخشى من ظلمةِ اللَّيلِ و
الدَّياجير.

٣-٥- الحرص على العهد:

قد أصبح شعره صورة للصيحات التي كانت ترتفع منه داعية إلى الوفاء، لأن المحبوب لم يوف بعهده. فيقول:
بدأت بموعِدٍ و رجعت عنه و كنتُ أعدُّ وعدك من عطائك

و لم تنزل الخواطرُ عنك تَبني
فلو كانت عهدوك لم تغَيّر
وفيت بما ابتدأت به و لكنْ
فإن تكُ قد ندمت على اصطفاي
و إن تكُ لم تُحْن فلأَيّ شيءٍ
بأتك لا تدوم على وفائك
و لم يبد التكدّر في صفائك
أظنك قد ندمت على ابتدائك
فإني ما ندمتُ على اصطفاك
تغيّر ما عهدنا من إخائك

(المصدر نفسه: ٨٨)

يشكو الشاعرُ من إعراضِ المحبوبِ و من نكثِ المحبوبِ عهدَهُ إذ إنّه لم يرتكب خطأً إلاّ نهيَهُ عن بعضِ خصاله و لا يُتوقّع منه نقضُ العهدِ بما أنّه كريمٌ، و يجده نادماً من الوفاءِ بعهدِهِ، و يعدّ نفسه صادقَ الوعدِ و يعلن أنّه لا يخيّد عن حُبّه. ثمّ يعلن رضاهُ تجاه أوامرِ المحبوبِ كلّها حتى في أحكامِ الحلالِ و الحرامِ، و يقسم صادقاً لو أنّ قلبه خالفه في أوامره لانتقل عنه و تركه.

ثمّ يعدّ الوفاءِ بالعهدِ من الأماناتِ التي يجب حفظها:

و ما أنا ممدوحاً بحفظِ وديعَةٍ
أقلُّ حقوقِ النَّاسِ حفظُ الودائعِ

(المصدر نفسه: ٥٦)

و لا أريدُ مدحاً لذلك لأنّ أقلَّ حقوقِ النَّاسِ هو حفظُ الأماناتِ (لا أريدُ أجراً لحفظِ الأماناتِ و هي الأسرارُ بيننا لأنّ أقلَّ مراتبِ الحقوقِ بين النَّاسِ هو حفظُ الودائعِ و الأماناتِ).

٣-٦-الصدق:

و هو طهر القول لغياب الوصف المادي و صدر الشعر عما يختلج في نفس الشاعر من أشجان الحب و الحرمان. و يظهر الحب في كل وجناته لا يمكن إنكاره:

لا خيرَ في عاشقٍ يخفي صبابته
بالقولِ و الشوقِ في زفرايته بادي

(المصدر نفسه: ٣٢١)

إنّه كان يعتقد أنّ العاشق الحقيقي يُعلِنُ حبه و لا يستتره عن الآخرين، لأنّ هذا الحبّ يظهر في كلامه في حين أن علامات الشوق ظاهرة في آهاتِ المحبّ و زفرايته.

فحتّامَ لا انفكَّ شوقاً إلى الرّضا
أصدّقُ من صدقي لديه مُكذّبُ

(الإصفهاني، بلاتاريخ: ٣٣)

إلى متى أبقى ملازماً للحبِّك مُتَشوّقاً إلى تحقُّقِ رضاك، فأنا فيما أنا فيه من صدقي ادعاءً، و لكنّ الأمرَ لم يكن ليصدّق من جانبِ الحبيبِ بل يُكذّبُهُ.

٣-٧-الحزن و التشاؤم ثم التوكّل:

لقلة الحديث عن فرصة اللقاء و الوصال، نجد الأسي المكتوم و الحزن على قلبه:

أأيامُ هذا الدّهْرِ كمّ تعنّفين بي
كأنّ لم تري قبلي معنّى و لا بعدِي

(المصدر نفسه: ٤٤)

يا أيُّها الدهرُ! لماذا تعنَّفُ بي و تُشدِّد عليَّ كأنَّكَ لم تَرَ ما أصابني من عناءٍ و شدَّةٍ و كأنَّكَ لم تجدْ أحداً
قبلي و لا بعدي ترميه بسهام العذاب، و قد وُجِّهتْ سهائمُكَ نُحوي فقط.
و لكنَّ صرفَ الدهرِ قد عمَّجَل الرَّدَى و أيَّاسني من أنْ تدورَ الدَّوائرُ

(المصدر نفسه: ٣٦)

و لكنَّ مرَّ الأيام و صروفَ الدهرِ، يُشعِرنِي بثرَب أجلي و يجعلني آيساً من أنْ أشاهدَ نوائِبَ الدهرِ، دنؤُ
الأجلِ يَمْنَعُنِي من مشاهدةِ المصائبِ المؤلمةِ.
ثمَّ شاعرنا يسلم بما أرادت له المقاديرُ في ابتلائه بالحبِّ و الفراق. و يعبر عن اعتقاده بما أراد الله للإنسان و
التسليم أمام إرادة ربِّ العالمين و الخضوع لهذه الإرادة الربانية لأنه قادرٌ على كلِّ شيءٍ. و تكثر في شعره كلمات
فقهيَّة كثيرة مثل: الحلال و الحرام و التوبة، و يُعلن غير مرة عن حبه العفيف إذ لا تشوبه أدنى شائبة، كما ورد في
البيت التالي:

أفوضُ أسبابي إلى الله كلِّها و أقنع بالمقدور فيها و أرتضي

(ضيف، ٤٢٧ق: ٤٥٤)

أتوكل على الله في أموري كلِّها و أرضى بما قدَّر الله لي.
و يستند في بعض الأحيان إلى كثيرٍ من الآيات القرآنية كما استفاد من الأمثال لبيان مُرادِه و يدعو المخاطب
إلى التوكل على ... في سبيل العشق:

توكَّل على الرَّحمان إن كنتَ مؤمناً
فكُلُّ الذي قد قدَّرَ اللهُ واقعٌ
يُجْرِكُ و دَعِي من نحوِ الطَّوابع
و ما لم يُقدِّرْهُ فليس بِواقعٍ

(الإصفياني، بلاتاريخ: ٥٧)

إذن توكَّل على الله إن كنتَ تؤمِنُ بالقضاءِ و القدرِ يُنقِذُكَ، و لا تُتابع الطَّوابعِ النحسةَ غيرَ المجدية. فإنَّ
الأمورَ بيد الله و لا يحدث شيءٌ إلا بقدرته و إرادته و ما لم يقدره الله لم يحدث كما جاء في التنزيل العزيز: ﴿إِنَّمَا
أمرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس/٨٢)

٣-٨-الصبر: يعلم الشاعر أنَّ الصبرَ تتبعه الراحة و لكن تحمّل الصبر لم يكن هيناً فإنَّه لا يتحقَّق إلا
بانقضاء الأيام و فناء العمر، كما يقول:

و إنِّي لأدري أنَّ في الصبرِ راحةً
فلا تُطفِ نازَ الشوقِ بالشوقِ طالباً
و لكنَّ إنفاقي على الصبرِ من عُمرِي
سلواً فإنَّ الجمرَ يسعُرُ بالجمرِ

(الإصفياني، ١٩٣٢م: ٣٤)

و يخاطب الشاعر حبيبه قائلاً: إن استطعت أن أكون صابراً، سأصبرُ حتَّى ينتهي صبري أو تحبَّ وصالِي
كما أنشد:

سأصبرُ إن أطقَّ الصبرَ حتى
يَمَلَّ الصبرُ أو تھوى الوصالا

(المصدر نفسه: ١٣٢)

٣-٩- عظمة الحبّ: يشير أبو بكر إلى الصعوبات الموجودة في طريق الحبّ لعظمته و علو درجته و لو كان

ذلك «بحر الصين»، بقوله:

لو كانَ دونكَ بحرُ الصينِ معترضاً خلطتُ ذاكَ سراباً دارسَ الأثر

(الإصفهاني، بلا تاريخ: ٥٠)

يتحمّل الشاعرُ جميعَ الصعوباتِ في طريقِ الحبِّ و يقول: لو كان بيبي و بيتك في طريق وصالك بحر الصين لعبرته فإنه عندي كسرابٍ ليس له أيّ أثر.

ثم يقول:

ينسى الهوى وصفه من حلّ ذروته كالأرض يشغل عنها من ثوى فيها

(المصدر نفسه: ٦٧)

يصرّح الشاعر في هذا البيت: من وصل غاية الهوى لا يقدر أن يصفّه وصفاً دقيقاً فهو يشبه الأرض التي يغفل عنها المقيم فيها.

٣-١٠- التذلل و التواضع للمعشوق لعظمة شأنه:

لي ذنوبٌ و لسئُ أنكرِ فاعفِرْ فالتّجني على المقرِّ اعتداءً

(المصدر نفسه: ٣١)

يقول الشاعر: إنني أعتزفُ بذنوبي و لا أخفيها عنك فاعفُ عن خطاياي و لا تُعابني عليها. و مُمارسة الجناية على الذي يعترفُ بذنبه هو في حدّ ذاته إجحافٌ و تجاوزٌ عن الحقِّ أيضاً.

لي حقوقٌ أيضاً عليك و لكنْ ذكرٌ مثلي لمثلِ هذا جفَاء

(المصدر نفسه: ٣١)

يقول الشاعر: سيدي! لدى المذنبِ حقوقٌ و لديكِ حقوقٌ أيضاً و لكنْ ليستِ حقوقنا متشابهةً، لأنَّ حقوقك تفوقُ حقوقي. فذكرُ مثل ما عندي لمثل ما لديك هو نوعٌ من ظلمٍ و جفاءٍ لأتّهما غيرُ متشابهين، لأنك أعلى شأنًا مِنّي. (و هذا المفهومُ دخّل في كلام كثيرٍ من العربِ بمعنى: يا سيدي عفوك أعظمُ من ذنبي و لا يُمائلُه فاعفُ عني).

قد ذلّلَ الشوقُ قلبي فهو معترفٌ إنّ التذللُ في حُكمِ الهوى شرفٌ

(المصدر نفسه: ٥٨)

يقول الشاعر: أصابَ قلبي الإذلالُ من أثرِ الشوقِ و قلبي معترفٌ بذلك و لكنّ التذللَ و التواضعَ في شريعةِ الهوى شرفٌ للقلبِ.

٣-١١- مشابهة المحبين و مؤانستهم:

فكلُّ امرئٍ يصبو إلى من يُجانس
فلا تحتقرُ نفسي و أنت حبيُّها

(المصدر نفسه: ٥٣)

لا تحتقرُ النفسَ التي رغبتُ فيك و أنت حبيُّها، لأنَّ كلَّ فردٍ يعشقُ من يُشابهه و يُجانسه.

لو كنتَ شاهدنا و الدَّارَ جامعةً و الشمْلُ ملتئمٌ و الودُّ مقترب

(الإصفيهاني، ١٩٣٢م: ٧١)

يخاطب الشاعر محبوبه بقوله: إنَّ الحبَّ قد جمَعَ بين العشاق، حيث جعل قلوبهم مُؤتلفةً على الحبِّ العفيف.

النتيجة

شهد العصر العباسي الثاني ازدهاراً في الشعر بكل أغراضه لكن خفَّ صوت المدرسة العذرية في الغزل و كثر الغزل الفاحش و فسدت الأخلاق لكن هناك بعض الشعراء كانوا يحافظون على قدر كبير من الغزل العفيف و الحشمة و الحياء و من سماته تليين اللغة و الابتعاد عن إيراد الغريب من الألفاظ و من أهم شعراء الغزل العفيف في هذا العصر هو أبو بكر محمد بن داود الإصفيهاني.

إنَّه صنَّف كتاب «الزهرة» و هي من أهم مصادر تاريخ شعر الحبِّ العاطفي في ذلك العصر. يُكثر في غزله من ذكر المنازل و الديار و الفيافي و القيعان و الرِّكبان و المطايا كما يصف الطبيعة و يهنئ بأعياد النيروز أو المهرجان و يذكر الأنوار و الرِّياحين بمفردات فارسية خلابة. و قد انعكست عناصر الحبِّ العفيف في أشعاره منها الصدق والصبر و توحيد الحبِّ للمحبيب، و التوكُّل، التذلل و التواضع و غيرها.

الهامش

*. هو غيلان بن عقبة و قد ولد حوالي العام ٧٧ للهجرة، كان عالماً بالكتابة و متميزاً بالدكاء الشديد و كان محباً رقيق العاطفة و ذا ورع و دين. (أبو الدنين، ٢٠٠٨م: ١٠) و قوله: وَمَا يَرْجِعُ الْوَجْدُ الزَّمَانَ الَّذِي مَضَى/وَمَا لَلْفَتَى فِي دِمْنَةِ الدَّارِ مَجْزَعٌ؛ يعني: لا يرد الحزنُ الزمان الذي كنت أحبه، و لا ينفع الجزع. (غيلان بن عقبة، ١٤١٥ق: ١٥٩).

المصادر و المراجع

١. القرآن الكريم
٢. الإمام علي (عليه السلام) (١٤٠٦ ق)، نهج البلاغة، مشهد: آستان قدس رضوي.
٣. آذرشب، محمد علي (١٣٨٢ش)، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي، طهران: سمت.
٤. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (١٣٥٨ق)، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم، عاصمة حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية.

٥. ابن خلكان، احمد بن محمد (١٩٤٨م)، *وفيات الاعيان*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: دون ذكر الناشر.
٦. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٤ ق)، *لسان العرب*، بيروت: دارصادر.
٧. أبوالدين، جورج (٢٠٠٨)، *ذو الرمة: حياته و شعره*، فلسطين: مركز الدراسات و الأبحاث.
٨. الإصفهاني، أبوبكر محمد بن داود (١٩٣٢م)، *الزهرة*، اعنتي بنشره لويس نيكل، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين.
٩. الإصفهاني، أبوبكر محمد بن داود (بلا تاريخ)، *أوراق من ديوان*، دراسة و تحقيق: نوري حمودي القيسي، بغداد: وزارة الأعلام في الجمهورية العراقية.
١٠. البسطامي، على بن طيفور (١٣٨٤ش)، *منهاج النجاح في ترجمة مفتاح الفلاح*، طهران: حكمت.
١١. حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (١٩٤٦م)، *كشف الظنون*، أنكارا: دون ذكر الناشر.
١٢. الخطيب البغدادي، المحافظ أبي بكر أحمد بن علي (١٩٣٢م)، *تاريخ بغداد*، القاهرة: دارالفكر.
١٣. الزّيّات، أحمد حسن و آخرون (١٤١٠ ق)، *المعجم الوسيط*، استانبول: دار الدعوة.
١٤. الصفدي، خليل بن أيّك (١٩٤٩م)، *الوافي بالوفيات*، باعثناء ديدرينغ، إستانبول: وزارة المعارف.
١٥. ضيف، شوقي (١٤٢٧ ق)، *تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)*، قم: ذوي القربى.
١٦. غيلان بن عقبة بن مسعود (١٤١٥ ق)، *ديوان ذي الرمة*، تحقيق: أحمد بسج، بيروت: دار الكتب العلمية.

فصلنامه لسان مبین (پژوهش ادب عربی)
(علمی - پژوهشی)
سال ششم، دوره جدید، شماره هجدهم، زمستان ۱۳۹۳
ابوبکر محمد بن داود اصفهانی، شاعر حبّ عقیف*

فائزه پسندی

دانشجوی دکتری دانشگاه کاشان

نصرا... شاملی

استاد دانشگاه اصفهان

علی بنائیان اصفهانی

دانشجوی دکتری دانشگاه قم

چکیده

ابوبکر محمد بن داود ظاهری اصفهانی (۲۹۷-۲۵۵ هـ ق / ۹۱۰-۸۶۹ م)، در عصر عباسی دوم می‌زیست. او از دانشمندان و فقهای عصر خود به شمار می‌آید، چراکه دارای جایگاهی رفیع در ادبیات، زبان‌شناسی، شناخت مذاهب، قضاوت و در استنباط احکام سرآمد بود. در این عصر، غزل عقیف (پاک) در کنار غزل اباحی (فاسد) فزونی یافت و با ظهور برخی از شاعران این عصر، همچون ابوبکر اصفهانی، روحی تازه یافت.

مقاله حاضر به بررسی مهمترین اشعار او که نمایان‌کننده انعطاف روشن در جریانات شعر عربی است و تبیین‌های بنیادهای سبک شعری خاص را بنیان نهاده، می‌پردازد بطوری که علاوه بر حفظ اسلوب‌های شعری برجامانده (از گذشتگان)، تحت تأثیر تمدن جدید عرب قرار گرفته است و بر این اساس نویسنندگان عقاید و اسلوب متمایز شعری او را در این مقاله واکاوی نموده‌اند.

کلمات کلیدی: ابوبکر محمد بن داود اصفهانی، عصر عباسی دوم، عشق، غزل عقیف.

* تاریخ دریافت: ۱۳۹۱/۰۴/۱۲ تاریخ پذیرش نهائی: ۱۳۹۱/۱۱/۲۱

نشانی پست الکترونیکی نویسنده: Faezehpasandi@yahoo.com